

الشاعر العبقرى
المجهول الذي صان ماء
جبينه ، وسقى دوحه
شاعريته بدمع
عينه وعبرات فؤاده ،
هو أنسى وأرفع قدراً

أمين مشرق : الأديب المجهول

بقلم هاني طه الراوي

التي نشرها في صحف
المهجر « كالسائح » وغيرها
تغني عن كتب كثيرة .
وقد كانت مقالاته
صرخات داوية في أذن
الرجعية العمياء . فقد كان

من ألف أمير للشعر يغمس يراعه في قلوب غيره من الشعراء ثم
يسامر ذوي الجاه والسلطان ليغمروه بالعطايا والصدقات .

والأديب العبقرى المجهول ، الذي يغترف أدبه من ينبوع
الحياة ، من شعبه الخائر ومن شعوب الأرض الخائرة المتألمة
المستطلعة الى مستقبل أفضل ، هو أنسى وأرفع قدراً من أديب
ينثر ما ينظمه الآخرون ، ويزخره ، ثم يتسلق هذا ويحشو
امام ذاك ، طمعاً في الحطام ، حطام الدنيا الزائل الذي كان
في الماضي البعيد والقرىب لطخة عارٍ في جبين الأدب العربي .
إنه يتسلق سلم الشعوذات قاصداً الشهرة ، والشهرة قد تكون
في بعض الاحيان كاللومس من استرضاها كان دونها قدراً كما
يقول ميخائيل نعيمة ...

فالشهرة ليست ضرورة للأديب ، بل قد تكون وبالاً عليه
عندما تحيط بهالة من التقديس ، ودونك ما فعلته الشهرة العريضة
بكبار ادبائنا المعاصرين في إنتاجهم الرخيص ..
والمرحوم أمين مشرق كان شاعراً مجهولاً وكاتباً غير
معروف الا لدى هواة الأدب المهجري ، ولم ينصفه أحد من
أدباء العربية سوى الدكتور محمد مندور في كتابه
النقيس « في الميزان الجديد » .

وقد طلبت من صديقه ميخائيل نعيمة عام ١٩٥٠ أن يزودني
ببعض المعلومات عن حياة هذا الشاعر الفريد ، وإذا بمعلومات
نعيمة ضئيلة أيضاً في هذا الموضوع فلقد كتب لي يقول :
« المرحوم أمين مشرق كان صديقي ولكني لا اعرف الكثير
عن حياته ، الا انه هجر الى الولايات المتحدة اولاً ومنها الى
الأكوادور . ثم عاد الى لبنان عام ١٩٣٢ حيث كانت الفرصة
الأولى لتعارفنا . وتزوج في العام ذاته وعاد الى الأكوادور .
وبعد عام أو عامين قضى في حادث سيارة . أما آثاره الشعرية
- على قلتها - فأكثرها من طراز ممتاز ... »

★

لم يخلف المرحوم أمين مشرق كتاباً نثرياً ولكن مقالاته

الأمين مجدداً في الوقت الذي كان فيه التجديد كفرأ لا يُغتفر
للأديب ، وفي الفترة التي كانت فيها الافكار التقدمية مثاراً للسخرية
والاستمزاز ومطأ الشفاء ...

ولم يكن أمين مشرق منجرفاً مع تيار التجديد ، لأنه لم
يكن من الذين ينجر فون مع تيار النزعات الفكرية من غير
تفكير ، ذلك انه لم يكن إمعة شأن بعض المهرجين الذين لا
يتورعون عن وضع سقط المتاع في آنية التجديد المزيف . لأن
النزعة التجديدية كانت بمنزلة مع دمه ، بل كانت عواصف تزار
في أعماقه فيطلقها يراعه ...

وحسبك أن تقرأ له بحثة الطويل « الداء العياء » المنشور في
كتاب « ما وراء البحار - أو النبوغ العربي في العالم الجديد »
لتوفيق الرافي . فقد أوضح فيه الفقيه أدق المقاييس التي يجب
أن يقاس بها الأدب الحي . وقد استهل بحثة بتأييده لميخائيل
نعيمة في انتقاده اللاذع لدرّة من درر شاعر الأمراء المرحوم
احمد شوقي . ثم طفق يندد بالمبالغة المقيمة التي طغت على أدبنا
القديم وسرت عدواها الى أدبنا الحاضر قائلاً :

« لو سمعنا أحد الشعراء يرثي اسكافاً مات بين النعال والاحذية قائلاً ان
الفضل مات بموته والعلم هدر ركنه والأدب امسى يتيماً ، ويتعجب كيف ان
النجوم لم تنطق حداداً والدهر لم يقف جثاً . أو لو فرأنا شعراً لآخر
يمدح فيه انور باشا وحصانه الأدم بقوله : ان صهيله « في قلب اوربا له ترديد » .
أو لو سمعنا عاشقاً يشد :

أمر بالحجر القاسي فألثمه لأن فاك فاس يشبه الحجر
وسألنا الثلاثة لماذا كان هذا الغلو ، لضحكوا منا ولا شك مشفقين لجباننا
ثم اخرج اولهم من تحت ابطة كتاب علم المعاني والبيان . وأظهر الثاني ديوان
المتني أو ابن الفارض . وفتح الثالث كتاب نهج البلاغة ، وقدموها الينا وقد لاحت
ابتسامة الانتصار على ثغورهم ولسان حالهم يقول : تعلموا هنا فواعد البلاغة
وحدود البيان ثم لا يحتاجون الى سؤال ... »

ثم يشور أمين مشرق على هؤلاء ثورة مشفق ساخر قائلاً :
« هؤلاء القوم ويا للأسف معذرون بعض العذر . كيف لا وكل ما تعلموه
منذ ان اصبحوا يتهاجون بالكلمات يتدبىء بـ « حدثنا سبيل بن عباد »
ويأنتمي بترح المعاقبات السبع ؟ أيام التلهيد على حفظة مسائله ؟ أو ليس طبعياً
ان تنمو البنية معوجة اذا ربطناها بخائط معوج ؟ وهل الذنب ذنب الارض



صورة تذكارية يظهر فيها من اليمين الى اليسار ميخائيل نعيمة ، المرحوم أمين مشرق ، المرحومة عقيلة المرحوم جبر ضومط ، فاضل الجمالي (رئيس وزراء العراق الحالي) . وقد التقطت لهم هذه الصورة في سوق الغرب ببلنات سنة ١٩٣٢ .

تلتفتوا الى خلف ولا تحاولوا اصلاح القديم فانه اصبح للفوت ، بل اجتهدوا في اصلاح نفوسكم وفي تقوية ذواتكم لاستقبال الحياة - حياة الجديد - حياة القوة .. »

فلم يكن الامين من الرجعيين الذين لا يسعون الى تغيير الواقع المؤلم أو الذين لا يؤمنون بإمكان تخطيط السلاسل التي تقيّد العالم العربي، فهو القائل :

« .. من وراء الجثث المتدلية من حبال المشانق ، من وراء الاجساد الذائبة على نيران التوجع ، من وراء الشراذم المتبددة في جميع اقطار الارض لا يحمل راية ولا تعرف وطناً، من وراء هذه الايام السوداء والبالى الخيفة المحشوة بالمالك ؛ من وراء جميع ذلك ارى طلائع صبح ناصع السباح تبصص في جبينه أسلاك من نور تنس ساطعة مبشرة بافتراق نهار ساطع .. »

★

أما شعر المرحوم أمين مشرق فأكثره شعر ذاتي يصف فيه آلام نفسه وأشواقها ومطامحها، ولكنه ليس كشعر بعض شعرائنا الذاتيين الأبنانيين الذين يحومون حول ذواتهم كما تحوم الذبابة حول السراج، فلا نفهم من طنينهم شيئاً . فشعره الذاتي واسع الأفق لأنه يعبر به في الواقع عن آلام نفس جريحة أبية وكأنه يعبر عن كل نفس جريحة أبية . اسمعه يخاطب نفسه في قصيدة « اتبعيني » :

إن رهتر الغير يطر راقصاً حول الذهب
يطأ الحق ويفخر بالمعالي والنسب .
فارمبي

انها لا تمطي قمحا اذا زرعتها قطرباً ؟ ... »

ولعل المرحوم أمين مشرق هو اول من فنّد القول العربي المشهور « إن أعذب الشعر اكذبه » تنفيذاً منطقياً جميلاً ، فاقد قال في هذا المقال : « الشعر والنثر كلام . ونتيجة الكلام التفاهم . ونتيجة التفاهم التأثير ، وأبلغ تأثير في الكلام الصادق . ثم ضرب لنا امثلة عملية على مبلغ تأثير الكلام الصادق في النفس الانسانية اقتطف منها هذا المثل الرائع :

« شحاذان يقول اولهما : « انا جائع » ويسكت فتتحنن عليه ونطعمه ، والثاني يتلو علينا موعظة يسوع على الجبل ، باكياً بدموع راحيل ، متوجعاً كتوجع الحنساء ، فنلوي عنه كارهين مشمتزين .. »

ولقد توهم الكثيرون من قدماء نقّاد الادب العربي ان الكذب شرط من شروط البلاغة . وقد كانت التضحية بالصدق في سبيل البهرجات البيانية والبهلوانيات الكتابية، ليست مستساغة فحسب وإنما ضرورية للأثر الفكري الناجح بحسب تلك المقاييس البالية . وقد ندّد مشرق بهذه النظرة التقليدية الحاطئة بعنف قائلاً :

« ... فان الآداب الدينية تنهى عن الكذب . وان العقل السليم لا يقبله . وأنه لا رفة فيه ، والرفة من خصائص الشعر ، وأنه لا منطق يدعمه ، والمنطق ركن الشعر والنثر . وأنه لا قبل له على النقد والتمحيص ، وكلاهما من أول اعمال الادب . وأنه لا فلسفة فيه ، والفلسفة روح الآداب على الاطلاق . وأنه يظهر الامور بغير حقيقتها ، وأصغى غايات الأدب الحقيقة . الكذب خداع - والأدب صدق . الكذب عجز - والأدب مقدرة . الكذب جبن - والأدب بسالة . »

لقد كان أمين مشرق يصرخ مثل هذه الصرخات في الوقت الذي كان فيه المرحوم شوقي يدفن الفضيلة مع « سليمان اباطة » (باشا) أحد سعاة مصر الكبار قائلاً في رثائه :

سارت جنازة كل فضل في الورى لما ركبت الآلة الخدباء !!
وتيمم الايتام أول مرة ورمى الزمان بصرفه الفقراء !
والله ما مات الوزير وكنتمو فوق التراب أعزّة أعباء !!!

★

أما نظرة أمين مشرق الى الحياة فقد كان يشوبها شيء من ظلام التشاؤم ، إلا ان تشاؤمه هذا كان قاصراً على نفثاته الوجدانية الذاتية لأنه كان متألماً في ديار الغربة . غير انه كان مؤمناً بأدب الالتزام ، أدب التوجيه ، أدب الواقع . وحسبك ان تقرأ له مقاله الطويل « أردية الآباء » المنشور في كتاب « بلاغة العرب في القرن العشرين » فقد خاطب الجيل العربي الجديد قائلاً :

« اماننا عقبات كثيرة ، ولكنها ستذوب امام العزم الذي لا يذوب . وطريقنا طويلة فليكن مبرنا طويلاً طويلاً ، ولتكن هممنا شديدة . لا

باسماً قد مرق الفقر ثباتي
ذهبي قلبي وأنساني ككتاني
أنصر الحق على العاتي المحابي
هازناً بالظلم لا أخشى عطب
واتبعني

نرتور يا نفس من مال الادب
ان شهدت الغير ييكبي تحت اقدام الزمان
فاضحكي منه كضحكي انه نذل جنان
شاهديني
ثابتاً بالعزم في وجه الرزايا
وقلوب الناس قد طارت شظايا
وإذا ما نهشت جسمي المنايا
إن روحي حلقت فوق الزمان
فاتبعني

نحن نحوي ، ليس يحوينا مكان !

وفي قصيدة « دموع الأمل » يصف شاعرنا موت حبيبته
وصفاً دقيقاً مؤثراً بألفاظ سهلة تفيض عذوبة وتنضح صدقاً ؛
متنقلاً من قافية الى قافية كما تنتقل فراشة الربيع من زهرة الى
زهرة ؛ ساكباً في قوافيه موسيقاه الشجية الرنّة العميقة الأنثى :

اتاني الزمان على غفلة
ومأت لأحيا الفتاة التي
فكيف اكشف من ادعني
فأطفأ من عيشي نورها
رأيت ولم أر لي غيرها
وحزني يأكل في اضاعي

صغيرين كنا كفرخي حمام
فنأب آناً وآناً تنام
يلعب شعراتها اصبعي
نعيش بظل الصبي الناظر
وزندي على صدرها الطاهر
ونلي من سكره لا يعي

ويا ليلة بئس من ليلة
أشدت عليها يد العلة
حنوت على جسمها الموضع
يقطع قلبي تذكراها
وغابت من العين انوارها
وناديت ربي فلم يسمع ..!

والقصيدة طويلة وكل ابائنها تجنح الخيال وتثير شتى
التأملات في أعماق الروح . ولعل أروع قصيدة نظمها امين
مشرق هي قصيدة « الكمنجة » بل لعلها أروع قصيدة قيلت
في الكمنجة في الشعر العربي :

أنصت الليل وأشباح الدجى
يا ابنة الاخشاب هل فيه حشا
هل ترى فيك فؤاد فد مشي
هل ترى فيك هيام
هل ترى خانك خلان لثام
ويك ما هذا التلوي والانين
يتلوى تحت هزات النغم
فيه اشواق وآلام ودم
أو شقاء أو سقام
ولذا تبكين عهد الخائنين

انني كلما قرأت هذا المقطع أحسستُ بأن الكمنجة كائن
حي ، انسان مثلي تستعر فيه الآلام وتتدافع في أعماقه أمواج
الأنين وتتراحم في فكره مشاعر تثيرها خيانة الذئاب البشرية .
وعلى أي حال فلنرافق الشاعر في تساؤله الذي لا يعرف النهاية
واليقين :

يا ابنة الاخشاب هل شق الفضا
أم ترى تبكين عهداً قد مضى
هل غدا الوجد شرابا
هل ترى تبكين في الشيب شبابا
ثم يمضي الشاعر في تساؤله اللجوج فيسمو بتأملاته المنجحة
عن هذا العالم :

يا ابنة الاخشاب هل هذا الحنين
أم ترى هذا سؤال تسألين
بين ايمان وريبة
تارة يبدو لك العيش لعية
لربوع ما رأيتها قط عين
عن حياة وخلود كيف اين ؟
بين آمال وخيبة
تارة يبدو لك الشك يقين ...

ثم يكاد أن ينتهي التساؤل عندما يصل الشاعر الى مرحلة
التقرير ، فيصف لنا حين نفسه الى الديار الروحية النائية التي
تتطلع اليها روح الفنان المعبذب على وجه الأرض :

ليس فيك مثل روحي نسمة
لا ولا قاب كقلي شمعة
لا ولا يؤس كبؤسي
دودة تمسي ملاكاً حين تمسي
أبدأ ظمأى لدار قاصية
في حشاها الف عين جارية
لا ولا نفس كنفسي
وتساجي الله من ماء وطنين

ثم يصل الشاعر الى مرحلة ثانية من التقرير فيجسّ احساساً
عميقاً بأن الكمنجة ما كانت لتنوح لولا ملامستها لصدره الزاخر
بالأشجان ؛ فهو مصدر الحانها التي تشجي وتبكي :

يا ابنة الاخشاب ما أنت سوى
في فؤادي ألف «رست ونوى»
كلما لامست صدري
منه في صدرك امواج كبحر
صوت روحي وصدى قلبي الطموح
وكنجات وأعواد تنوح
فشجي للحن يجري
مائج طوراً وطوراً مستكين

الا ان شاعرنا الذي أحسّ بأن الكمنجة منفذ تنطلق منه
عواصف أحزانه ، ومنبر تذيع منه روحه مشاعره الغامضة
الثائرة ؛ يعود الى نفسه وقد خفت أنغام الكمنجة فيراها طافحة
بالأحزان ، وما هذه الألحان التي سمعها الا فطرة من خضم ألمه
فيخاطب الاوتار الشاكية قائلاً :

لا تخافي انما اعطيك الصدى
هوذا قاي يضحي ابداً
رددي منه الانينا
واهزني بالقلب ماذا ترهبينا
انا في داخلي يبقى الالم
فدية عن فلك الخالي الاصم
وامألي الليل حيننا
مزفيه حبذا لو تفعلين ...

وبعد فهل من الانصاف أن ينسى شاعر ونثر من قدر
أمين مشرق ؟ هذا الشاعر الذي عاش شريفاً وكان صادقاً
ومبدعاً في كل ما نظم ونثر ، ومات شهيداً ، وما هو اليوم
ينام تحت تراب الغربة القاسية ملفوفاً بأكفان النسيان . ولكنني
أرى على خريمه بعين الروح اكليلاً من الغار وضعه « أبولو »
الذي لا ينسى كل من يدخل معبده من المنشدين المخلصين ...
بغداد حارث طه الراوي